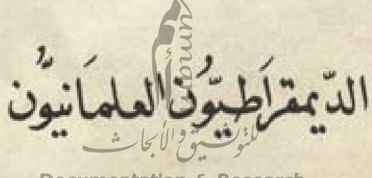
لبنان الديمقراطي العربي العلماني

(١)

ظواهر الايديولوجيات المتخلفة
في
الوضع العربي الراهن



الديمقراطيون العلمانيون

صدر ضمن هذه السلسلة :

١ ـ ظواهر الايديولوجيات المتخلفة في الوضع العربي .

٢ ـ مقدمات اولية حول مقولة التعددية الحضارية .

٣ ـ مقدمات اولية حول مقولة الطائفة ـ الطبقة .

٤ ـ العلمانية في اوروبا تاريخيا وحاليا .

٥ ـ العلمانية ومسالة بناء الوطن .

الطبعة الاولى ١٩٧٩

الطبعة الثانية ١٩٨٠

الايديولوجيا : ان كلمة ايديولوجيا تحمل معنيين : المعنى الاول ، المستعمل غالبا ، وهو مجموعة الافكار والتصورات والتصرفات المشتركة لدى جماعة من الناس ، سواء طائفة او حزب او طبقة او شعب . والمعنى الثاني ، هو تلك المجموعة من الافكار والتصورات التي تنسج لدى الجماعة المبثوثة في صفوفها وعيا زائفا للحقائق الواقعية ، فتتحول الى اداة حجب ، اي مجموع الاوهام والافكار المغلوطة التي تلوي رؤية الواقع . ومن خلال السياق نلتقط اي المعنيين هو المقصود .

الايديولوجيا العربية : ان الايديولوجيا العربية ايديولوجيا مستلبة ، وبالتالي فهي غير مطابقة لحاجات الثورة العربية او التقدم العربي . واستلابها اما سلفي ، وهذا ينطبق على القسم الاكبر من المثقفين (الانتلجنتسيا) العرب ، او اغترابي وهذا ينطبق على البقية الباقية تقريبا من هؤلاء المثقفين . هذا الفوات او التشويه في الايديولوجيا العربية يكمن في اساس اخفاق النهضة العربية الثانية كلها .

لم هذا التأخر في الايديولوجيا العربية ؟

الاسباب عديدة الا ان اهمها :

١ ــ ان العودة الى السلفية قد تعززت عندما اخذ السلطان الغربي يفرض نفسه علينا . في مواجهة هذا الانتهاك اصبحت السلفية حصنا للدفاع عن الذات ، وبالطبع لم تكن عملية دفاع فعلية ناجحة بلْ ايهامية فحسب .

٢ ــ لكن هذه الواقعة ليست كافية للتفسير . فمثلا ، كيف نفسر النزعة الجرمانية الرافضة لعصر الانوار ؟ وكيف نفسر النزعة السلافية الرافضة للتغرب ؟ كيف نفسر موقف المثقفين الصينيين (رغم ان الصين لم تحتل من قبل دولة اخرى) السلبي من الثقافة الغربية ؟ . يمكن القول ان رد الفعل السلبي لامة تواجه اقتحاما اجنبيا فكريا هو بمثابة دفاع متأخر عن الذات ، او هو متأخر عن تأكيد الذات . وهذا الشكل المتأخر في تأكيد الذات هو واحد من اجلى تظاهرات التأخر العام للمجتمع .

٣ ــ حتى المثقفون العرب المنفتحون على التغرب ، نظرا لتداخل العالم ، اصبحوا محاصرين حصارا خانقا من قبل الثقافة العربية . حصار لم يشهده من قبل ، مثلا ، لا المثقفون الروس ولا الصينيون. في هذا الحصار ، ونظرا لافتقارها الى بعض المسبغات اللازمة ، ترى الثقافة العربية نفسها وسط دوامة من التيارات الفكرية الغربية المختلفة والمتخالفة . هنا يجد معظم المثقفين انفسهم امام ان يختاروا (والانتقائية هنا هي السهولة والسطحية اذ لا تحتاج الى ثقافة عميقة ولا توجهها نهاجية ولا تربطها منظومة فكرية) الافكار العربية الاقرب الى الايديولوجيا السلفية ، او ان يختاروا افكارا غربية لا صلة لها بواقع شعبهم او المرحلة التي يمر بها تطوره التاريخي .

بعد هذه المقدمة والتعريفات السريعة ، ارى ان الوطن العربي ، يشهد وبصورة عامة ، ومنذ وقت ، وبوتيرة وشدة متفاوتة بين قطر واخر ، سيرورة انتقال الى حقبة تاريخية يقود فيها القسم البدوي من العرب ، بوعيه المفوت ، وتأخره السياسي ، وعلاقاته الاجتماعية ما قبل القومية ، القسم غير البدوي منهم . ولقد اخذت هذه السيرورة كل زخمها واتساعها مع نزع الناصرية في مصر كمؤسسة .

شيئا فشيئا اتضح ويتضح ميل تحول سيرورة نزع الاستعمار الى سيرورة نزع تأثيرات بعض الحضارة الحديثة الغربية الذي تسلل الى المجتمع العربي خلال التجربة الكولونيالية بخاصة . لا شك ان الادوات التقنية الترفيهية ، الاكثر قابلية للتصدير ، الخاصة بالمجتمع الاستهلاكي الغربي ، مطلوبة لدينا ، فالطبقات الطفيلية المنعمة تتهالك عليها وتستهلكها بفحش ، الا ان الوافدات الغربيات الثلاث ، الاكثر تمثيلا وتمييزا للحضارة الحديثة ، ونعني الدولة القومية العقلانية والديمقراطية والعلم ، تطارد وتضمر وتنحسر . عوامل هذه السيرورة كثيرة ، الذاتية منها هي الثلاثة الرئيسية التالية :

١ ـ اخفاق محاولة النهضة العربية الثانية ، التي تلقت ضربة قاصمة في هزيمة حزيران .

٢ ـ الوعي المفوت ، التقليدوي و التقليدوي الجديد ، للانتلجنتسيا العربية بوجه عام والنخبة السياسية العربية بوجه خاص .

٣ ـ دور البترول العربي البدوي .

الا ان الحرب ضد القيم والمثل القومية الديمقراطية الحديثة لم ولن تحسم نهائيا ، رغم قوة المواقع التي تحتلهـــا الرجعيات العربية ، سواء القديمة او الجديدة ، ورغـــم ان الاستبداد الشرقي يجهد لافتراس كل روح المقاومــــة لدى الشعب ولاستئصال القوى التقدمية ، وبخاصة الحديثة والعقلانية ، من المجتمع العربي . لقد خسرت القوى التقدمية العربية ، بسبب تخلفها وقصور وعيها ، جولات ، لكنها لم تخسر المعركة النهائية ، في ظل التدهور العربي والبؤس القومي التائمين ، ولا يمكن للرجعيات العربية أن تستمر الا اذا كسبت المعركة باستمرار . من هنا الحرب مفتوحة . والمستقبل ، ما دامت الرجعيات العربية قد قذفت بالشعب العربي على منحدر قومي واخلاقي وثقافي واقتصادي ، المستقبل كما قلت ، سيتوقف على الوعي المطابق الذي يفترض ان تبلغه كتلة الانتلجنتسيـــا العربية ، على التنظيم والتضحية والجسارة التي يفترض ان تضبط وتفعم نضالات الطليعة العربية .

الظاهرة الاولى في العصر الذي تسود فيه ايديولوجيـــا متخلفة ، تتمثل بتصفية مشروع او جنين الدولة ـ الامـــة ، (او الدولة القومية) ، والتقهقر الى مرحلة ما قبل الدولة ، اي الى الدولة العشيرة ، الدولة ـ الطغمة ، الدولة ـ الطائفة.

هذه التظاهرة تعبر ، بالطبع ، عن اشتداد ، بل هيمنة ، الميول ما قبل القومية (العشائرية ، الطائفية ، العائليـــة ، الاقليمية او المحلية) ، كما توضح ان الوعي القومـــي

(او القوماوي بصورة ادق) العربي ، الذي بلغ خلال مرحلة النضال ضد الاستعمار مرتبة الوعي بانتماء سلبي الى الامة (اي الانتماء الى الامة بدلالة التعارض والتناقض مع الخارج فحسب) ، لم يرق بعد الى مرتبة الانتماء الايجابي للامة .

تصفية مشروع الدولة ـ الامة يتجلى ، اولا ، في الانفصال المتزايد بين الحكم والشعب ، وثانيا ، في تنامي الطابع الاستبدادي التوتاليتاري المحافظ للانظمة العربية ، وثالثا ، في التوسع المذهل في فساد الدولة ، فسادا لم يعد لا هامشيا ولا استثنائيا مدلسا ، كما انه فساد ارتدى طابعا سياسيا مملوكيا اي انه لم يعد مجرد مسألة انحلال اخلاقي ، بل تعبير عن انفصال الحكم عن الامة .

مع تصفية او تفسيخ الاشتراكيات المتخلفة (او التأخراكيات) لحساب تأخراليات (رأسماليات متأخرة) مركانتيلية جمعت العهد الاستهلاكي الباذخ الى التسول الذليل على ابواب الخيام البترولية ، انبثقت من بيروقراطية الدولة شريحة جديدة يمكن تسميتها بـ « البيروقراطية العليا» او «بورجوازية التأخرالية» تحالفت وتمفصلت ودعمت بورجوازية كومبرادورية سمسارية ، وضعت الدولة والشعب في آن في خدمتها فحولت، علنا تقريبا ، الدولة الى اداة نهب والشعب الى موضوع نهب .

الظاهرة الثانية هي التوسع الملحوظ لسلطان الايديولوجيا

التقليدية السلفية . هذا التوسع الذي بدا واضحا تقريبا منذ هزيمة حزيران . والقطر المصري لا يمثل الحالة الوحيدة ، بل القصوى فحسب . كما ان الصراعات السياسية الطائفية ، المكتومة او المتفجرة ، التي يعانيها عدد من الاقطار العربية ، غذت ايديولوجيات طائفية صبت في تدعيم سلطان الايديولوجيات التقليدية السلفية ، فخلخلت هنا او قطعت هناك اللحمة القومية للشعب ، وطرحت مسألة الاقليات نفسها كمسألة ملحة ومتفجرة .

لم تعدم الايديولوجيا التقليدية الظروف الذاتية والموضوعية التي مكنتها من الاستمرار ، فالتقليد ، الشفهي او المكتوب ، ما زال يقدم لكتلة الامة (الريف + المراة + امي المدن) غذاءها الثقافي ووعيها السكوني المفوت ، رغم الهزات والتغيرات السياسية التي اصابت السطح السياسي للمجتمع العربي . بيد ان الايديولوجيا التقليدوية تعيش ، اليوم ، كاستمرار فحسب ، بل هي قد تلقت دفعا وسع نفوذها وتأثيرها : انها تهاجم وتصعد وتكسب اراضي جديدة .

لا شك ان الهزيمة والمآسي والتدهور العربي المتزايد اعطت زخما لهذه الايديولوجيا التقليدوية : في ساعات الشدة ، العون الاتي من الله ، الصبر الذي يلهمه ثواب السير على الصراط او جزاء الخروج عنه ، تشكل كلها ضربا من بلسم يفيد في الخروج من الهزيمة ، ضربا من تصعيد ايديولوجي للهزيمة ، يساعد على تحملها ثم نسيانها ، ويلقي الضوء على اسبابها . لكن ، في التحليل الاخير ، هذا التصعيد او البلسم

او الضوء ليست سوى بعض الادوات المفهومة للايديولوجيا التقليدية ، وبالتالي لو ان ايديولوجيا ثورية وحديثة هي السائدة في صفوف الانتلجنتسيا العربية لووجهت الهزيمة من زاوية اخرى ، زاوية مستقبلية : تجديد وتحديث عمارة المجتمع العربي .

لعل السبب الاكثر اهمية في تنامي سلطان الايديولوجيا التقليدية هو تهافت واخفاق الايديولوجيا والحركة القوميتين العربيتين وكذلك الماركسية العربية الرائجة ، باعتبار ان هزيمة حزيران هي ، بالتحديد ، هزيمتهما ، وان التجربة « الاشتراكية » التي عجزت عن تجديد وتحديث المجتمع العربي هي ، بالتحديد ايضا ، تجربتهما . والزخم الجديد الذي حرك الايديولوجيا التقليدية انطلق من الحجة التالية : ما دام « الجديد » قد عجز وفشل ، فلماذا الاستمرار في تجنب طريق السلف الصالح ، طريق التقليد الاصلي الاصيل ؟ والواقع ان الحركة القومية العربية ، رغم تناقضاتها السياسية الحادة مع الحركات التقليدية (حركة الاخوان المسلمين مثلا)، تشارك الاخيرة ،الى هذا الحد او ذاك ،بعض عناصرهما الايديولوجية الماضوية ، اللاعقلانية ، المعتقدية ، ناهيك عن ادانتهما المشتركة ، انطلاقا من منظورات روحية وايمانية ، لليبرالية والماركسية على حد سواء. هذه العناصر الايديولوجية المشتركة هي التي تفسر تعايشهما (واحيانا تصالحهما) الايديولوجي المترافق بصراع سياسي مرير : النظام الناصري، شأن الانظمة التقليدية الجديدة الاخرى المشابهة ، كان يحصد

الاخوان المسلمين سياسيا ، في حين ان سياسته التعليمية والتربوية كانت تزرعهم ثقافيا وايديولوجيا . هذا الامر يفسر ، بعد ان تراخى الضغط السلطوي عليهم ، كيف احتفظوا ، بل عززوا قواهم الاجتماعية ومواضعهم الايديولوجية ونفوذهم في المجتمع .

وجاء اخيرا دور الايديولوجيا البدوية التقليدوية محمولة ، بدلا من على ظهور الجمال ، على ظهور براميل البترول : فالشعوب العربية غير البترولية ، الاقل تأخرا بنسبة ملحوظة من الشعوب البترولية، تتعرض لعملية ضغط وغزو ايديولوجي وثقافي ، ناهيك عن السياسي ، من قبل الاخيرة .

لا شك ان عوامل عديدة ، داخلية وخارجية ، ايديولوجية وسياسية ، لعبت في عملية تصفية الناصرية في مصر ، بيد ان البترول البدوي ، حامل الايديولوجيا والثقافة البدويتين ، لعب دورا رئيسيا في عملية التصفية هذه . ولقد كانت « دولة العلم والايمان » الساداتية باكورة عملية الغزو هذه ، « وجمعية التكفير والهجرة » آخر ثمارها .

الظاهرة الثالثة في هذا العصر تتجلى في ميدان التربية والتعليم بوجه خاص وميدان الثقافة بوجه عام : فمن الجدير بالملاحظة ان الثقافة العربية ، التي كانت تتبرعم مع تغلغل تيارات ليبرالية فيها ، لم تلبث ان اخذت تذبل مع تراجع هذه التيارات اولا ، ومع صعود الاستبداد الشرقي ثانيا ، الى ان لفظت انفاسها في هذا العصر : الفكر ، المستحق اسمه ، يموت او يهاجر حيث الاستبداد والتوتاليتارية . وتلملم الثقافة

نفسها وتتكوم حيث تجد حرية ما : في لبنان مثلا ، بل في الخارج حيث الالاف من المثقفين العرب منثورين في الجامعات ومراكز البحث . وشبه الثقافة الباقي ، قسم منه يحمل المباخر والقسم الاخر يهبط ، بسبب فقدان اي اتصال او تفاعل جديين مع الثقافة الكونية ، الى المحلوية : ثقافة خردة متحدرة الى افق ضيعة ، مقابل ثقافة كونية ، ثقافة مدن ، تتقدم وتزدهر .

في ميدان التربية والتعليم ، حيث يطبخ ويتقرر المستقبل العربي ، يتجلى ، على أوضح صورة ، التكامل الايديولوجي (او التسوية الايديولوجية) الذي قام بين اتجاه الاخوان المسلمين والاتجاه القوماوي ، اي بين التقليدية والتقليدوية الجديدة . هذا التكامل قدم برهانه الكبير في المجابهة مع اسرائيل خلال هذا العقد : المجابهة العربية ــ الاسرائيلية هي، في اعمق مستوياتها ، مجابهة بين المدرسة العربية والمدرسة الاسرائيلية ، بين الجامعة العربية والجامعة الاسرائيلية .

وهذه بعض الانطباعات العامة حول البرامج والكتب المدرسية في اكثر من قطر عربي وان كانت بنسب شبه متفاوتة:

أ ــ عاجزة عن تعليم اللغة العربية تعليما عصريا يتيح للطالب المقدرة على القراءة والكتابة المضبوطتين اولا ، ويجعلها اداة اعلام دقيقة لنقل الثقافة الحديثة ثانيا ، ويزيل الحواجز بين الفصحى والعامية ثالثا .

ب ــ تعرض التاريخ العربي ، بحجة جعله اداة قومية ، عرضا ايديولوجيا ومبتسرا ، يتنكر للحقيقة التاريخية حينا

ويلويها حينا اخر . هذا الازورار عن الحقيقة التاريخية يعلم الطالب لا عقلانية التاريخ ولا عقلانية الواقع ، وبالتالـــي ، يزرع اللاعقلانية والرومانسية والانغلاق في وعيه العـــام . واخيرا هذه الرؤية الميتافيزيقية للتاريخ تتابع تقليدا عربيـــا قديما : تلغي الاحساس بالتاريخ ، اي بالتطور والتغيـر ، فتضعف بل تلغي ، بالنتيجة ، مقولة الواقعي في الوعي .

جـ ــ تدرس العلوم عن نحو لا يساعد على تنمية عقل علمي، اي « عقل يستطيع ان يقترب اكثر فأكثر من الواقع ، ان يصيغ تمثيلا اكثر فأكثر مطابقة للعالم الذي يحيط بنا ونحن جزء منه، بغية فهمه اولا ، ثم للانتقال من الفهم الى التنبؤ (لو التوقع) ومن بعد الى الفعل » . في مرآتها ، لا يمكن للطالب ان يمسك بالعالم الطبيعي ، بما فيه الانسان ، من حيث نشوئه ، تطوره، والقوانين التي تحكمه . الظاهرات الطبيعية تبـــدو اكواما غير منظومة ، ولا متسقة برابطة سببية ، ونسبية الحقيقـــة العلمية تتحول احيانا الى اتهام العقل بالعجز ، والظاهرات غير المتوقعة او المدهشة ، ذات المظهر الذي لم يفسر بعد ، تقع في حيز او اطار يقع قبل العلم او بعده . وبكلمة تدرس العلوم فاقدة الى هذا الحد او ذاك نهاجيتها وصراحتها ، ناهيك عن جذرها الفلسفي العقلاني . هذه الحقيقة تفسر لما يشكل الاخوان المسلمون نسبة كبيرة في القطاع العلمي العربي ، ومنها الكليات العلمية في الجامعـــات .

د ــ تدرس التربية الدينية وفق منظورات ماضوية وطائفية في آن . تخلت الحركة القومية العربية عن مبدأ اساسي من

مبادىء الدولة القومية ، مبدأ فصل الدين عن الدولة ، وبالتالي عن المدرسة . بيد ان قصور وعيها رماها في تخل ابعد : لو لم تكن ازاء مصالحة ايديولوجية (او ، اذا شئنا ، تسوية ايديولوجية) بينها وبين الاخوان المسلمين ، لعملت على تدريس التربية الدينية من منظورات عصرية وقومية في آن متجاوزة المنظورات الماضوية والطائفية للتربية الدينية .

فعلى صعيد تحديث الفكر الديني ، وهو جزء من عملية تحديث الفكر العربي عموما ، يمكن عمل الشيء الكثير بجعله مستقبليا ، عمل يساهم في توجيهه نحو حل مشكلات الانسان العربي الراهنة والمستقبلية ويحافظ في نفس الوقت على القيم والمثل الدينية . ان عمل تركيب بين القيم الدينية والمفاهيم العصرية والقومية ليس امرا ممكنا فحسب ، بل ضروري ايضا . ان مهمة عظيمة تنتظر هؤلاء المثقفين والمؤمنين المسلمين المستوعبين التراث الاسلامي والمتمثلين ثقافة ومناهج العصر الحديث : تحديث الفكر الاسلامي وجعله مستقبليا .

هـ ـ عاجزة عن ، وغير مبالية في آن بتعليم اللغات الاجنبية بحيث يمكن للنخبة المثقفة الاستفادة منها في عملية المثاقفة ونقل المعرفة ، المتطورة والمتنامية باستمرار ، بشتى فروعها، الى بلدنا وشعبنا . هذا الواقع يستمد جذوره من الموقف القوماوي من الغرب والثقافة الغربية ، ناهيك عن عدم ادراك تأثير ذلك على تدني مستوى التعليم الجامعي وعلى المستوى الثقافي والتقني للبلد وتهبيطه الى مستوى محلي ، الى

مستوى ضيعة ، ولنقل الى مستوى كتاتيب ، قياسا بالمستويات الثقافية للبلدان المتقدمة . اللغات الاجنبية هي مركبتنا او قناتنا الى الثقافة الكونية والمعرفة العصرية . وسنبقى ، بوصفنا شعبا يعاني حالة تأخر وفوات ، بحاجة ملحة اليها لامد طويل طويل .

في الدول العربية غير البترولية انضاف العامل المالي، المتمثل في نقص النفقات اللازمة للتعليم ، الى تلك العوامل الثقافية التي ذكرنا ، فدفع المستوى الثقافي للتعليم الى تدهور متزايد ، وابقى نسبة الامية تراوح في مكانها في قطر وتزيد في قطر اخر :

(١) النقص المتزايد في الابنية المدرسية ، وبالتالي التخلي عن اليوم الدراسي الكامل وتقسيم الطلاب الى وجبات بلغت ثلاثا احيانا .

(٢) نقص تأهيل المدرسين ، بل قل انعدامه بنسب واسعة .

لقد تضافرت لافراز هذه الظاهرة عوامل عديدة :

(أ) ركود او تراجع متوسط الدخل القومي للفرد .

(ب) ارتفاع نسبة الانفاق العسكري .

(ج) الانفجار الديمغرافي والارتفاع الكبير في نسبة الاولاد في سن الدراسة الى مجموع السكان .

الجامعة العربية تتدهور ، هي الاخرى ، قياسا بجامعات البلدان المتقدمة ، الى مستوى مدرسة ثانوية . بعض اهم اسباب هذه الظاهرة :

(١) تراجع الفكر الليبرالي وسيطرة الفكر المحافظ او التقليدوي على الفكر الجامعي .

(٢) عدم نشوء مناخ البحث العلمي ، اي عدم تكون ظاهرة « الرهبنة العلمية » بل ان اللقب الجامعي اصبح ، في حالات عديدة ، مصدرا لدخل « كومبرادوري » .

(٣) انفصال الجامعة عن المجتمع وعدم ربط اهداف التعليم الجامعي بحاجات تطوير المجتمع .

(٤) عدم امتلاك « المركبة » اللغوية ، وهذا يصدق على الطلاب كافة وعلى نسبة غير بسيطة من الجسم التعليمي .

(٥) التراجع المذهل في المستوى الثقافي والمهني للجسم التعليمي الجامعي ، بسبب حشر التنابلة والجهلة ، لاسباب سياسية وحزبية وطائفية ، في هذا الجسم .

(٦) التوسع الديماغوجي في التعليم الجامعي ، المستند بدوره الى تعليم ابتدائي وثانوي جد متدن . هذا التوسع ، الذي هبط الى مستوى مذهل بنسبة الاساتذة الى الطلاب ، لم يعد يهدف الى رفع المستوى الثقافي للمجتمع ولا تلبية حاجات تطور الاقتصاد ، بل فقط اعطاء شهادات تشكل ضربا من امتيازات بلا استحقاق على حساب المجتمع .

الظاهرة الرابعة لتاثير الايديولوجيا المتخلفة هي ظاهرة الانتقال الى عهد ملوك الطوائف . حيث لم تعد التجزئة امرا واقعا فحسب ، بل شرعي ايضا . لا شك ان المحاولة الوحدوية الناصرية كشفت عن قوة البنى التجزيئية والمصالح التي افرزتها والايديولوجيا التي صاغتها ، كما كشفت عن

قصور ورومانسية الوعي الوحدوي ، الا ان هذه المحاولة وضعت العرب في عصر الوحدة ، اي انها انتزعت شرعية المشروع الوحدوي ، وبالتالي ، وسعت الاحتمالات الوحدوية وحركت وعززت الميول الجاذبة الى المركز ، ونزعت شرعية الميول النابذة عن المركز وجابهتها . هذا الجذر الوحدوي هو تظاهرة من تظاهرات الجذر العام الذي اصاب حركة النهضة العربية ، لذا من الطبيعي ان تكون هذه المرحلة مرحلة استنقاع اقليمي . لكن من الواضح ان التراجع على الجبهة الوحدوية هو اكبر التراجعات ، وذلك لان المشروع الوحدوي، بغياب عبد الناصر ونزع الناصرية كمؤسسة ، اصبح بدون قاعدة ، اي بدون القطر ــ المركز ، او القطر ــ المحور للعملية او للسيرورة الوحدوية . تظاهرات التراجع الوحدوي كثيرة ، الملفت والمذهل منها هو النزوع الاقليمي الذي لا لجلجة فيه لدى الحركة السياسية الفلسطينية (خارج الضفة الغربية وقطاع غزة) الصاعدة مع هزيمة حزيران . ثم انتقال قوى تنسب نفسها الى القومية العربية من رومنسية وحدوية الى اقليمية ضمنية مقاتلة .

بالمقابل ، ان صعودا جديدا في حركة النهضة والثورة العربيتين سيتجلى ، على الارجح ، في حركة صعود على الجبهة الوحدوية . من هنا فان القوى الثورية الوحدوية ستبقى تعتبر المشروع الوحدوي جزءا من مشروعها الثوري. عملية انضاج الوعي الوحدوي لا يمكن ان تنفصل عن عملية انضاج الوعي الثوري العام ، ومشكلات التوحيد العربي

جزء ، بل جزء بالغ الاهمية وبالغ التعقيد في آن ، من مشكلات بناء عمارة جديدة للمجتمع العربي .

وما دام المشروع الوحدوي جزءا من المشروع الثوري العربي ، فستبقى قوى التغيير ضد كل النزعات الاقليمية وضد سائر اشكال وبنى التجزئة ؛ بوصفها وقائع واتجاهات مناقضة لسيرورة النهضة العربية بوجه عام وبناء الدولة القومية العربية الموحدة بوجه خاص . ولان الوعي الوحدوي المطابق تظاهرة فرعية من تظاهرات الوعي الثوري العام المطابق ، فان قوى التغيير ستنبذ ايضا ، فضلا عن الاقليمية والتجزئة ، الوعي القوماوي الرومنسي، الذي عجز تارة وانزل الاضرار تارة اخرى بقضية الوحدة العربية . على قوى التغيير ان تعمل ، بلا كلل ، للقبض على وعي وحدوي مطابق ، اي وعي وحدوي واقعي ــ ثوري ، يمهد ويخدم الفعل الوحدوي.

الظاهرة الخامسة لتأثير الايديولوجيا المتخلفة هي التدهور المتزايد للمدينة العربية ، سواء من الناحية الاقتصادية والعمرانية ام من الناحية الثقافية والفكرية . خلافا للمدينة الغربية ، التي تطورت فكريا وسياسيا واقتصاديا وعمرانيا بصورة وئيدة ومنتظمة ومتسقة كمركز صناعي ، توسعت المدينة العربية توسعا مذهلا ، لا عقلانيا ، فوضويا ، بتأثير عوامل عديدة ، اهمها :

(١) التزايد الانفجاري في عدد سكانها (٥ ــ ٦ ٪ سنويا) .

(٢) النزوح الطوفاني من الريف اليها .

(٣) التضخم المفرط في الاجهزة الادارية والعسكرية وتركزها في المـدن .

يتجلى الطابع المأساوي لهذا النمو ، اذا تذكرنا ، مثلا ، ان خمس سكان مصر يعيشون في القاهرة ، التـي ستصبـح ، وحدها ، العام ٢٠٠٠ ، اي بعد ٢٢ سنة ، ٢٨ مليون نسمة . هذا التضخم الطفيلي غير المصحوب بتقدم اقتصادي مناسب، في الاقطار غير البترولية بخاصة ، يوسع نسبة مساحـات احياء براكات التنك والطين ، احزمة البؤس وبؤره ، التي تبلغ نسبة مساحاتها اليوم بين ٣٥ و ٦٠ بالمئة من المساحة الكلية للمدن العربية الرئيسية ، والتي لا يتوفر فيها لا كهرباء ولا ماء ولا مجارير ، ناهيك عن وسائل المواصلات والخدمات الصحية والابنية المدرسية .

اضف الى ذلك ، وهذا هو الآخر الاكثر مأساويـة ، ان العمران في المدينة العربية ، التي قامت في الاصل على اشرطة من الارض اما ساحلية او نهرية او في واحات ، اخـذ يأكل كالجراد ، هذه الاشرطة او الواحات : يأكل الاخضر ، يصحرن الارض . من هذه الزاوية ، المدن العربية تتريف ، ترث ، تقذر تتصحرن ، وتخلفها يتقدم مـن التخلف الكفافي الـى التخلف التسولي .

بيد ان ترييف المدينة العربية هو الظاهرة الابرز والاشـد شؤما . هنا تطورنا كان « اصيلا » . في الغرب ، كان انتصار الحضارة الحديثة بمثابة انتصار للمدينة على الريف ، ومن ثم مدننة الريف . المدينة اصبحت الموقد الثقافي والاجتماعي

والاقتصادي والسياسي للحياة القومية . سيرورة التطور العربي اخذت ، من حيث الجوهر ، اتجاها معاكسا : المدينة العربية ليست قرية نمت ، تقدمت ، انتفضت ، انقلبت ، بل قرية انداحت عمرانيا فحسب ، فقدت ميزات القرية التقليدية ولم تكسب صفة المدينة العصرية . حيث يخيم الاستبداد الشرقي ، تزول كل مظاهر الحياة الفكرية والثقافية والسياسية (وايضا ، الاجتماعية ، بسبب الموقف من المراة) . ركود وصمت مقبرة من جانب وصخب مكتوم في قصور ماجنة من جانب اخر . ويذوي عقل الامة في العطالة او يهاجر او يتعهر .

انطلاقا من هذه الحقائق المريرة التي يعانيها مجتمعنا العربي ، لا يسعني الا القول انه « **المطلوب الا يمنح العرب لحظة واحدة من الوهم والخنوع ، الخشوع والاستسلام ، انما يجب جعل التاخر والاضطهاد القائمين اشد وطاة بان نضيف اليهما وعي التاخر والاضطهاد . يجب ان نجعل العار اشد شينا وقبحا بنشره على الملأ . يجب ان نعلم الشعب الذعر من واقعه كي نعطيه الشجاعة لمحاربة هذا الواقع** » .

في اطار سلسلة الندوات التي ينظمها الديمقراطيون العلمانيون القى هذه المحاضـرة الاستاذ اسد غندور بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٩٧٨ .

انطلاقا من هذه الحقائق المريرة التي يعانيها مجتمعنـــا العربي ، لا يسعني الا القول انه « المطلوب الا يمنح العـرب لحظة واحدة من الوهم والخنوع ، الخشوع والاستسلام ، انما يجب جعل التاخر والاضطهاد القائمين اشد وطاة بان نضيف اليهما وعي التاخر والاضطهاد . يجب ان نجعل العـار اشد شينا وقبحا بنشره على الملا . يجب ان نعلم الشعب الذعـر من واقعه كي نعطيه الشجاعة لمحاربة هذا الواقع » .

السعر ١٠٠ ق . ل